نحن اللاجئين *

حنّا أرندت

ترجمة: فتحي المسكيني

* هذا النصّ ترجمة للمقالة التالية:

- Hannah Arendt, “We Refugees”, in: *Altogether Elsewhere: Writers on Exile*, Edited by Marc Robinso (Boston / London: Faber & Faber. First Edition,1994), pp. 110-119

في المقام الأوّل، نحن لا نحبّ أن نُسمَّى "لاجئين"[1]؛ نحن أنفسنا نسمّي بعضنا بعضاً "الوافدين الجدد"[2] أو "المهاجرين"[3]. وإنّ جرائدنا هي صحفٌ موجّهة إلى "الأمريكيين الناطقين بالألمانية"؛ و، على حدّ علمي، لا يوجد ولا وُجد قطّ نادٍ مؤسَّس من قِبل أناس اضطهدهم هتلر، وكان اسمُه يشير إلى أنّ أعضاءه كانوا لاجئين.

من المعتاد أن يكون لاجئٌ ما شخصاً دُفع دفعاً إلى البحث عن ملجأ بسبب جرم ما ارتكبه أو بسبب رأي سياسيّ ارتآه. حسناً، صحيحٌ أنّنا اضطررنا إلى البحث عن ملجأ؛ لكنّنا لم نرتكب أيّ جرم وأكثرنا لم يحلم أبداً بأن يكون له أيّ رأي راديكاليّ. إنّ معنى مصطلح "اللاجئ" قد تغيّر معنا. إنّ "اللاجئين" هم الآن من بيننا أولئك الذين شاء القدر المشئوم أن يصلوا إل بلد جديد من دون وسائل بقاء، وعليهم أن يتلقّوا مساعدة من قِبل لجان اللاجئين.

قبل اندلاع هذه الحرب، نحن كنّا حتّى أكثر حساسيّة إزاء تسميتنا باللاجئين. كنّا نبذل وسعنا كي نثبت إلى الآخرين بأنّنا مجرّد مهاجرين عاديين. وكنّا نصرّح بأنّنا رحلنا بمحض إرادتنا إلى بلدان من اختيارنا، وكنّا ننكر أن تكون لوضعيتنا أيّة صلة بـــ "ما كان يسمّى مشاكل اليهود". أجل، نحن "مهاجرون" أو "وافدون جدد" تركنا بلادنا بسبب أنّنا، يوماً ما، لم يعد يناسبنا أن نظلّ فيها، أو لأسباب اقتصاديّة بحتة.كنّا نريد أن نبني حياتنا من جديد، هذا كلّ ما في الأمر. ومن أجل أن يعيد بناء حياته من جديد على المرء أن يكون قويّا ومتفائلا، وهكذا نحن متفائلون جدّا.

إنّ تفاؤلنا هو في الواقع تفاؤل مثير للإعجاب، حتى ولو قلنا ذلك نحن أنفسنا. إنّ قصّة كفاحنا قد صارت في نهاية الأمر معروفة. نحن خسرنا موطننا[4]، وذلك يعني ألفة الحياة اليومية. نحن خسرنا عملنا، وذلك يعني الثقة في أنّنا مفيدون بشكل ما في هذا العالم. نحن خسرنا لغتنا، وذلك يعني طبيعيّةَ ردود الفعل،

[1]- refugees

[2]- newcomers

[3]- immigrants

[4]- home

وبساطةَ الإشارات، والتعبيرَ غير المتكلّف عن المشاعر. نحن تركنا أقاربنا في الغيتوهات[5] البولندية، وأفضلُ أصدقائنا كانوا قُتلوا في المحتشدات[6]، وذلك يعني تمزّق حياتنا الخاصة.

ومع ذلك، ومنذ أن تمّ إنقاذنا - وأكثرنا كان لابدّ من إنقاذه عديد المرات - نحن بدأنا حياتنا الجديدة وحاولنا أن نتّبع إلى أقصى حدّ ممكن كلّ النصائح الجيّدة التي قدّمها لنا منقذونا. قيل لنا أن ننسى؛ وقد نسينا بشكل أسرع ممّا يمكن لأيّ كان أن يتخيّل. وبطريقة ودّية تمّ تذكيرنا بأنّ البلد الجديد سوف يصبح موطناً جديداً؛ وبعد أربعة أسابيع في فرنسا أو ستّة أسابيع في أمريكا، ادّعينا أنّنا فرنسيون أو أمريكيون، بل إنّ أكثرنا تفاؤلا قد أرادوا حتى أن يضيفوا بأنّ حياتهم السابقة بكاملها قد مرّت في نوع من المنفى غير الواعي، وأنّ بلدهم الجديد هو وحده الذي علّمهم الآن ماذا هو الموطن حقّا. صحيحٌ أنّنا في بعض الأحيان نرفع بعض الاعتراضات حين يُقال لنا أن ننسى عملنا السابق؛ ومثُلُنا العليا السابقة من الصعب عادةً أن نرمي بها بعيدا إذا كان نمطنا الاجتماعي في خطر. إلاّ أنّنا مع اللغة نحن لم نجد أيّة صعوبات: بعد عام واحد، اقتنع المتفائلون منّا بأنّهم يتكلّمون الإنجليزية بنفس الطلاقة التي كانوا يتكلّمون بها اللغة الأمّ؛ وبعد عامين هم يقسمون بأنّهم يتكلّمون الإنجليزية أفضل من أيّة لغة أخرى - إنّ ألمانيّتهم هي لغة لا يتذكّرونها إلا بصعوبة.

ومن أجل أن ننسى بشكل أكثر فعاليّة، نحن بدلا من ذلك تجنّبنا أيّة إشارة إلى المحتشدات أو مراكز الاحتجاز[7] التي جرّبناها تقريبا في كلّ البلدان الأوروبية - فقد يمكن أن يؤوَّل ذلك، باعتباره ضرباً من التشاؤم أو من عدم الثقة في الموطن الجديد. وفضلا عن ذلك، كم مرّة قيل لنا بأنْ لا أحد يرغب في الاستماع إلى كلّ ذلك؛ لم يعد الجحيم معتقدا دينيّا أو تخيّلاً، بل صار شيئا واقعيّا تماماً مثل البيوت والأحجار والأشجار. وعلى ما يبدو، لا أحد يريد أن يعرف أنّ التاريخ المعاصر قد خلق نوعا جديدا من الكائنات البشريّة - نوع البشر الذين يوضعون في المحتشدات من قِبل أعدائهم وفي مراكز الاحتجاز من طرف أصدقائهم.

حتى فيما بيننا نحن أنفسنا لا نتكلّم عن هذا الماضي. وبدلا من ذلك، نحن عثرنا على طريقتنا الخاصة في السيطرة على مستقبل بلا يقين. وبما أنّ كلّ الناس يخطّطون ويتمنّون ويأملون، كذا نحن أيضا. ولكن، فيما عدا هذه المواقف الإنسانية العامة، نحن نحاول أن نوضّح المستقبل بطريقة أكثر علميّة.

---

[5] - ghettos

[6]- concentration camps

[7]- internment camps

بعد هذا القدر الكبير من سوء الحظّ، نحن نريد مساراً يكون مؤكّدا مثل طلقة بندقية. من أجل ذلك، نحن تركنا الأرض خلفنا بكلّ ما فيها من ريبة وعدم يقين، وأدلينا بأبصارنا نحو السماء. إنّ النجوم هي التي قالت لنا - وليس الجرائد - متى سيُمنى هتلر بالهزيمة ومتى سوف نصبح مواطنين أمريكيين. نحن نعتقد أنّ النجوم أرشد نصحاً من كلّ الأصدقاء؛ تعلّمنا من النجوم متى يجدر بنا الغداء مع المحسنين، وفي أيّ يوم لدينا أفضل الحظوظ كي نملأ واحدا من تلكم الاستبيانات التي لا تُحصى التي تصاحب حياتنا الحالية. في بعض الأحيان، نحن لا نتّكل حتى على النجوم، بل على خطوط أيدينا أو على علامات كتابتنا اليدوية. هكذا نحن نتعلّم أقلّ حول الأحداث السياسية ولكن أكثر حول أنفسنا الخاصة الثمينة، حتى ولو أنّ التحليل النفسي هو بوجه ما قد صار خارج الموضة. هذه الأوقات الأسعد حظّاً قد مرّت حينما كانت سيّدات المجتمع الراقي وسادته المملّين المضجرين يتحدّثون عن الهفوات العبقريّة لطفولتهم الأولى. هم لم تعد لهم أبداً أيّة رغبة في قصص الأشباح مرة أخرى؛ إنّ التجارب الواقعيّة هي التي تجعلهم يرتعدون خوفاً وفزعاً. لم تعد ثمّة أيّة حاجة إلى فتنة الماضي؛ إنّه مسحور بما فيه الكفاية على أرض الواقع. وهكذا، وعلى الرغم من تفاؤليّتنا الصريحة، نحن نستعمل كلّ ضروب الحيل السحرية من أجل استحضار أرواح المستقبل.

أنا لا أعرف أيّة ذكريات وأيّة أفكار تسكن في أحلامنا في كل ليلة. أنا لم أجرؤ على الاستعلام عن هذا الأمر، منذ أن أصبحت، أنا أيضا، كائنة متفائلة. ولكن في بعض الأحيان، أنا أتصوّر أنّنا في آخر الأمر نحن نفكّر ليلاً في أمواتنا أو نحن نتذكّر القصائد التي أحببناها ذات مرة، بل كان يمكنني حتى أن أفهم كيف أنّ أصدقاءنا في الساحل الغربي، أثناء حظر التجوال، قد تكون خطرت ببالهم تلكم النزوات الغريبة، حيث يعتقدون أنّنا لم نكن فقط "مواطنين مستقبليين"[8]، بل "أجانب معادين"[9] في الوقت الحاضر. في ضوء النهار، بالطبع، نحن نصبح أجانب معادين "تقنيّاً" فقط - كلّ اللاجئين يعرفون ذلك. ولكن حين تمنعك أسباب تقنية من مغادرة بيتك في الساعات المظلمة، فإنّه من اليقين أنّه لم يكن سهلاً تفادي بعض التأمّلات المظلمة حول العلاقة بين التقنية والواقع.

كلاّ، ثمّة شيءٌ ما خاطئ في تفاؤلنا. يوجد من بيننا أولئك المتفائلون الشاذّون الذين بعد أن قاموا بإلقاء كمٍّ كبيرٍ من الخطابات المتفائلة، هم يعودون إلى بيوتهم ويفتحون الغاز أو يستفيدون من ناطحة سحاب بطريقة غير متوقعة. ويبدو أنّهم يثبتون أنّ ابتهاجنا الذي أعلنّا عنه هو قائم في أساسه على استعداد خطير للموت. ولكوننا تربّينا على القناعة بأنّ الحياة هي الخير الأسمى، وأنّ الموت هو الرعب الأكبر،

[8]- prospective citizens

[9]- enemy aliens

فقد أصبحنا شهودا وضحايا لفظاعات أسوأ من الموت - من دون أن تكون لنا القدرة على اكتشاف مثل أعلى أسمى من الحياة. وهكذا، على الرغم من أنّ الموت قد فقد هوله ورعبه بالنسبة إلينا، نحن صرنا لا نريد ولا نحن نستطيع أن نخاطر بحياتنا من أجل قضيّة ما. وبدلا من القتال - أو التفكير حول كيف يصبح المرء قادرا على العودة إلى القتال - اعتاد اللاجئون على تمنّي الموت إلى أصدقائهم أو إلى أقاربهم؛ فإذا ما مات أحدٌ، تخيّلنا بابتهاج كلّ العناء الذي استطاع أن يوفّره على نفسه. وفي آخر الأمر، انتهى كثيرٌ منّا إلى تمنّي أن نكون نحن أيضا استطعنا توفير بعض العناء على أنفسنا، وأن نفعل وفقا لذلك.

منذ سنة 1938- منذ اجتياح هتلر للنمسا - نحن رأينا كيف يمكن للتفاؤل البليغ والفصيح أن يتحوّل بكلّ سرعة إلى تشاؤم أخرس. مع مرور الوقت، حصلنا على ما هو أسوأ - حتى على نحو أكثر تفاؤلا، حتى أكثر ميلا إلى الانتحار. كان النمساويون اليهود تحت حكم شوشنيش شعباً ودوداً - كلّ الملاحظين غير المنحازين أُعجبوا بهم. وإنّه من العجيب حقّا كيف كانوا على قناعة عميقة بأنّه لاشيء كان يمكن أن يحدث لهم. ولكن عندما قامت القوّات الألمانية بغزو البلاد وبدأ جيرانهم "المسيحيون"[10] في أعمال الشغب ضدّ مساكن اليهود، بدأ النمساويون اليهود في الإقدام على الانتحار.

وعلى خلاف الانتحارات الأخرى، فإنّ أصدقاءنا لا يتركون وراءهم أيّ تفسير عمّا فعلوه، ولا أيّ اتّهام، ولا أيّ دعوى ضدّ عالم كان قد دفع برجل يائس إلى الكلام وإلى التصرّف بودّية إلى آخر يوم من أيّامه. والرسائل التي تركوها كانت وثائق تقليدية، بلا أيّ معنى. وهكذا، فإنّ خطب الجنازة التي نقوم بها على قبورهم هي خطب قصيرة، مرتبكة ومشحونة بالأمل. لا أحد يهتمّ بالدوافع، هي تبدو واضحة بالنسبة إلى كلّ واحد منّا.

أنا أتكلّم عن وقائع لا تحظى بشعبيّة؛ وما يجعل الأمور أكثر سوءًا هو أنّني من أجل إثبات وجهة نظري أنا لا أتوفّر على الحجج الوحيدة التي تثير إعجاب الإنسان الحديث - الأرقام. حتى أولئك اليهود الذين ينكرون بكلّ حنق وجود الشعب اليهودي هم يقدّمون لنا فرصة عادلة للنجاة بقدر ما يتعلق الأمر بالأرقام - بأيّ شكل آخر كان يمكن لهم أن يثبتوا أنّ قليلا فقط من اليهود هم مجرمون وأنّ كثيرا من اليهود هم قد قُتِلوا كوطنيين[11] جيّدين في وقت الحرب؟ وعبر جهودهم لإنقاذ الحياة الإحصائيّة للشعب اليهودي، نحن نعرف أنّ اليهود لديهم أدنى معدّل انتحار من بين كلّ الأمم المتحضّرة. وأنا على يقين بأنّ تلك الأرقام هي لم تعد صحيحة، لكنّني لا أستطيع أن أثبت ذلك بواسطة أرقام جديدة، وإن كنت أستطيع ذلك بلا ريب

[10]- Gentile

[11]- good patriots

من خلال تجارب جديدة. وهذا قد يمكن أن يكون كافياً بالنسبة إلى تلكم النفوس الشكوكيّة التي لم تكن أبدا مقتنعة بأنّ قياس جمجمة أحدهم يعطينا فكرة دقيقة عمّا تحتوي عليه، أو أنّ إحصائيات الجريمة تكشف عن المستوى الدقيق للأخلاق الوطنية. وبأيّة حال، أينما كان اليهود الأوروبيون يعيشون اليوم، فهم لم يعودوا يتصرّفون وفقاً للقوانين الإحصائية. إنّ الانتحار لا يحدث فقط بين الأشخاص المذعورين في برلين وفيينا، في بوخارست أو باريس، بل أيضا في نيويورك ولوس أنجلس، في بيونس آيرس ومونتيفيديو.

ومن جهة أخرى، لم يُذكر إلاّ القليل عن عمليات الانتحار في الغيتوهات والمحتشدات أنفسها. صحيح أنّنا تلقّينا تقارير قليلة جدّا من بولندا، لكنّنا توفّرنا على أخبار واسعة إلى حدّ ما حول المحتشدات الألمانية والفرنسية.

ففي محتشد غورس، على سبيل المثال، حيث كانت لي فرصة تمضية بعض الوقت، لم أسمع إلاّ مرة واحدة عن الانتحار، وكان ذلك اقتراحًا عن فعل جماعيّ، يبدو أنّه كان نوعا من الاحتجاج بهدف إغاظة الفرنسيين. وحينما لاحظ البعض منّا بأنّنا قد أُبعدنا هناك "من أجل أن نموت كالكلاب"[12] في كلّ الأحوال، فإنّ المزاج العام قد انقلب فجأة إلى شجاعة عنيفة على الحياة. وذهب الرأي العام لدينا إلى أنّ المرء كان عليه أن يكون لا اجتماعيّا[13] بشكل غير عادي، وألاّ يكترث بالأحداث العامة، إذا ما كان لا يزال قادرا على تأويل الحادث بكامله على أنّه حظّ سيّء شخصي وفردي، وطبقا لذلك، أنهى حياته بشكل شخصي وفردي. لكنّ نفس الأشخاص، حالما يعودون إلى حياتهم الفردية الخاصة، وتواجههم مشاكل فردية مشابهة، هم يتحوّلون مرة أخرى إلى ذلك التفاؤل المعتوه الذي هو أقرب ما يكون إلى اليأس.

نحن أوّل مضطهدين يهود غير متديّنين[14] - ونحن أوّل أناس، وليس في الحالة القصوى، يردّون بواسطة الانتحار. ربما كانوا على حقّ أولئك الفلاسفة الذين يعلّمون الناس أنّ الانتحار هو الضمانة الأخيرة والعليا للحرية الإنسانية: نحن لسنا أحرارا من أجل خلق حياتنا أو العالم الذي نعيش فيه، وعلى الرغم من ذلك نحن أحرار في أن نرمي بحياتنا بعيدا وأن نغادر العالم. إنّ اليهود الأتقياء لا يمكنهم، بلا ريب، أن يحقّقوا هذه الحرية السالبة؛ فهم يرون جريمةً في الانتحار، أي نحوا من التدمير للشيء الذي لن يكون المرء قادرا أبدا على صنعه، ومن التعارض مع حقوق الخالق. ("الربّ قد أعطى والربّ قد أخذ"[15])؛ وسوف يضيفون قائلين: ("تبارك اسم الربّ"). إنّ الانتحار عندهم، مثل الجريمة، إنّما يعني

[12]- *''pour crever''* . بالفرنسية في النص الإنجليزي.

[13]- asocial

[14]- non-religious

[15]- سفر أيّوب، 1: 21

اعتداءً وتجديفاً على الخليقة بكلّيتها. وإنّ الإنسان الذي يقتل نفسه يثبت أنّ الحياة لا تستحقّ أن تُعاش، وأنّ العالم لا يستحقّ أن نسكن فيه.

غير أنّ الذين ينتحرون لدينا هم ليسوا متمرّدين مجانين يرفعون تحدّيا في وجه الحياة والعالم، ويحاولون أن يقتلوا الكون برمّته في أنفسهم. إنّ الانتحار خاصّتهم هو طريقة هادئة ومتواضعة في الزوال؛ ويبدو وكأنّهم يعتذرون عن الحلّ العنيف الذي عثروا عليه بالنسبة إلى مشاكلهم الشخصية. وفي رأيهم، على العموم، ليس للأحداث السياسية أيّ شأن مع قدرهم الفردي؛ وفي الأوقات الجيّدة أو السيئة، هم يعتقدون فقط في كيانهم الشخصي. والآن هم وجدوا بعض النقائص الغريبة في أنفسهم التي تمنعهم من الانسجام [مع الآخرين]. ولكونهم كانوا يشعرون أنّهم مؤهلون منذ طفولتهم المبكّرة إلى منوال اجتماعي معيّن، فهم في أعينهم فاشلون إذا كان الاحتفاظ بهذا المنوال لم يعد ممكنا. كان تفاؤلهم هو المحاولة التي لا جدوى منها للاحتفاظ بالرأس فوق الماء. وخلف هذه الواجهة من الودّ، كانوا على الدوام يقاتلون ضدّ اليأس من أنفسهم. وفي النهاية، هم يموتون من نوع من الأنانية.

إذا ما تمّ إنقاذنا نحن نشعر بالإهانة، وإذا ما تمّت مساعدتنا نحن نشعر بالانحطاط. نحن نقاتل مثل مجانين من أجل وجود خاص يتوفّر على مصائر فردية، منذ أن أصابنا الخوف من أن نصبح جزءًا من ذلك الجمع الغفير من "**الشنونر**"[16] (الشحّاذين اليهود) الذين كنّا، وكثيرٌ منّا من المحسنين السابقين، نتذكّرهم جيّدا. تماما كما حدث مرّة أن فشلنا في فهم أنّ المسمّى "شنونر"، إنّما كان رمزا إلى المصير اليهودي وليس "شلمهل"[17] (البائس، السيّئ الحظّ)، كذلك اليوم نحن لا نشعر بأنّنا مؤهَّلون للتضامن اليهودي؛ نحن لا نستطيع أن نتفطّن إلى أنّنا في حدّ ذاتنا لسنا معنيين بقدر ما هو حال الشعب اليهودي في جملته. وفي بعض الأحيان كان هذا النقص في الفهم مؤيَّدا ومدعوماً بقوّة من طرف الراعين لشؤوننا. وهكذا، أنا أتذكّر أنّ رئيس جمعية خيرية كبيرة في باريس كان كلّما تلقّى بطاقة مثقّف ألماني-يهودي تحمل لقب "دكتور" التي لا مناص منها، إلا وأخذ يصرخ بأعلى صوته "سيّدي الدكتور، سيّدي الدكتور، سيّدي الشنونر (الشحاذ)، سيدي الشنونر!".

والنتيجة التي خرجنا بها من هكذا تجارب بغيضة كانت بسيطة كفايةً. أن يكون المرء دكتورا في الفلسفة هو أمرٌ لم يعد يرضينا؛ وتعلّمنا أنّه من أجل بناء حياة جديدة، ينبغي على المرء أن يحسّن أوّلا من

[16]- *schnorrer*. من اللهجة اليهودية المحلية (اليدّريش yiddish)، والتي دخلت إلى الألمانية.

[17]- *schlemihl* أو shlemiel. من اللهجة اليهودية المحلية (اليدّريش yiddish)، والتي دخلت إلى الألمانية.

حياته القديمة. لقد تمّ اختراع حكاية خرافية صغيرة من أجل وصف سلوكنا؛ أنّ دشهند (كلبًا ألمانيا) قد أخذ يقول في وجعه: "ذات مرة، حينما كنت القديس برنانرد..."

إنّ أصدقاءنا الجدد، وهم تحت غمرة هذا الكمّ الكبير من النجوم والرجال ذوي الشهرة، من الصعب عليهم أن يفهموا أنّه في أساس كلّ أوصافنا عن أمجاد الماضي تكمن حقيقة إنسانية واحدة: أنّنا كنّا ذات مرّة أشخاصاً يهتمّ بهم الناس، وأنّنا كنّا محبوبين من طرف الأصدقاء، وحتى كنّا معروفين لدى أصحاب العقارات بأنّنا ندفع إيجارنا بشكل منتظم. ذات مرة كنّا نستطيع دفع ثمن طعامنا وركوب مترو الأنفاق من دون أن يُقال عنّا، إنّنا غير مرغوب فينا. لقد أصبحنا هستيريين بعض الشيء منذ أن بدأ الصحافيون يترصّدوننا، ويقولون لنا علناً بأن نكفّ عن أن نكون مزعجين وكريهين عندما نأتي إلى شراء الحليب والخبز. نحن نعجب كيف يمكن أن يحدث ذلك؛ فنحن حريصون إلى حدّ اللعنة في كلّ لحظة من حياتنا اليومية على تفادي أن يخمّن أيٌّ كان من نحن، وأيَّ نوع من جواز السفر نحن نحمل، وأين تمّ تعمير شهادة ميلادنا - وأنّ هتلر لم يكن يحبّنا. نحن نحاول قدر المستطاع أن نتأقلم في عالم، حيث ينبغي أن يكون لك ميلٌ سياسي معيّن عندما تشتري طعامك.

تحت هذه الظروف، كان القديس برنارد يكبر ويكبر. لا يمكنني أبدا أن أنسى ذلك الشاب الذي كان يُنتظر منه أن يقبل بنوع معيّن من العمل، وتنهّد قائلا: "أنتم لا تعرفون من تكلّمون؛ لقد كنت مدير قسم في كارشتات [قسم كبير للتخزين في برلين]". بيد أنّه ثمّة أيضا اليأس العميق الذي ضرب ذلك الرجل في منتصف العمر، الذي استعمل حيلا لا حصر لها لدى جمعيات خيرية مختلفة من أجل أن يتمّ إنقاذه، ثمّ صرخ في النهاية قائلا: "ولا أحد هنا يعرف من أكون!" ولأنّه لا أحد كان يريد أن يعامله بوصفه كائنا إنسانيّا ذا كرامة، بدأ يرسل البرقيات إلى الشخصيات العظيمة وعلاقاتها الكبيرة. إلاّ أنّه تعلّم بسرعة أنّه في هذا العالم المجنون أسهل أن يكون المرء مقبولا، باعتباره "رجلا عظيماً" من أن يكون كائناً إنسانيّاً.

كلّما كنّا أقلّ حريّة في أن نقرّر من نكون أو أن نعيش كما نشاء، كلّما حاولنا أن نقيم جبهةً وأن نحجب الوقائع، وأن نؤدّي أدوارا ما. لقد تمّ طردنا من ألمانيا لأنّنا كنّا يهوداً. ولكن بعد أن عانينا في اجتياز الحدود الفرنسية، تحوّلنا إلى "بوش"[18]. بل قيل لنا إنّه ينبغي علينا أن نقبل بهذه التسمية إذا ما كنّا فعلاً ضدّ نظريات هتلر العنصريّة. وطيلة سبع سنوات، حاولنا أن نلعب الدور السخيف لأنْ نحاول أن نكون فرنسيين - على الأقلّ مواطنين مستقبليين؛ ولكن مع بداية الحرب تمّ احتجازنا، رغم ذلك بوصفنا "بوش". ومع ذلك، فإنّ البعض منّا، في الأثناء، قد أصبح بالفعل ذلك النوع من الفرنسي المخلص الولاء،

[18]- ''boches'' les. بالفرنسية في النص الإنجليزي، وهي كلمة تحقير استعملها الفرنسيون للإشارة إلى أشخاص من أصل "ألماني".

حيث إنّا لم نستطع حتى أن ننقد النظام الحكومي الفرنسي؛ وهكذا نحن صرّحنا بأنّه كان من الصائب تماما أن يتمّ احتجازنا. لقد كنّا أوّل "المسجونين الطوعيين"[19] الذين لم يرَ التاريخ مثلهم. وبعد أن اجتاح الألمان البلاد [الفرنسية]، لم يكن على الحكومة الفرنسية سوى أن تغيّر اسم الشركة؛ ولكوننا سُجنّا لأنّنا ألمان، فإنّه لم يتمّ تحريرنا لأنّنا يهود. إنّها عين القصّة في كل أنحاء العالم، تتكرّر مرة إثر أخرى. في أوروبا صادر النازيون ممتلكاتنا؛ أمّا في البرازيل، فكان علينا أن ندفع ثلاثين في المائة من ثروتنا، مثل كلّ الأعضاء المخلصين من "رابطة الألمان في الخارج". وفي باريس، لم نكن نستطيع أن نترك بيوتنا بعد الثامنة مساءً بسبب أنّنا يهود؛ ولكن في لوس أنجلوس نحن مقيّدون، لأنّنا "أجانب معادين". إنّ هويتنا قد تغيّرت باستمرار، حيث إنّه لا أحد يستطيع أن يكتشف من نحن الآن.

ومع الأسف، فإنّ الأمور لا تبدو أفضل حالا عندما نلتقي بأناس يهوديين. فإنّ الطائفة اليهودية الفرنسية على قناعة مطلقة بأنّ كلّ اليهود الآتين من وراء نهر الراين هم كانوا ما يسمّونهم **البولاك**[20] - وهم الذين يسمّونهم الألمان **يهود الشرق**. لكنّ هؤلاء اليهود الذين أتوا بالفعل من أوروبا الشرقية هم لم يكونوا قادرين على التوافق مع إخوانهم الفرنسيين ويسمّوننا **ياكي**[21]. وإنّ أبناء كارهيّ - الياكي هؤلاء - الجيل الثاني المولود في فرنسا، والذي هو بعدُ مندمج كما ينبغي - هم يتقاسمون رأي الطبقات العليا من اليهود الفرنسيين. وهكذا، في نفس الوقت، كان بإمكانك أن تسمَّى **ياكي** من طرف الأب، و**بولاك** من طرف الابن.

ومنذ اندلاع الحرب والكارثة التي سقطت على الطائفة اليهودية الفرنسية، كانت مجرّد واقعة كوننا لاجئين تمنعنا من الاختلاط مع المجتمع اليهودي الأصلي، وبعض الاستثناءات فقط تثبت القاعدة. هذه القوانين الاجتماعية غير المكتوبة، مع أنّه لم يُقبل بها أبدا علناً، إنّما كانت تحوز على القوة الكبرى للرأي العمومي. وهذا النوع الصامت من الرأي والممارسة هو أكثر أهمّية بالنسبة إلى حياتنا اليومية من كلّ التصريحات الرسمية عن الضيافة والإرادة الطيبة.

إنّما الإنسان حيوان اجتماعي والحياة ليست سهلة بالنسبة إليه عندما تكون الروابط الاجتماعية مقطوعة. إنّ التمسّك بالمناويل الأخلاقية هو أيسر كثيرا داخل نسيج المجتمع. وبعض الأفراد القلائل فقط يملكون القوّة من أجل الاحتفاظ بكرامتهم حين يكون وضعهم الاجتماعي والسياسي والقانوني ملتبساً.

---

[19]- بالفرنسية في النص الانجليزي.

[20]- *Polaks*. أي "بولوني".

[21]- *Jackes*. أو "Yekke"- اسم يطلقه الألمان على اليهود، ويبدو أنّه إشارة إلى تزمّتهم في اللباس أو الزيّ المميّز لهم.

ولكون الشجاعة كانت تنقصنا، كي نقاتل من أجل تغيير وضعنا الاجتماعي والقانوني، فقد قرّرنا، بدلا من ذلك، كذا فعل كثيرٌ منّا، أن نحاول تغيير الهوية. وهذا السلوك الغريب قد جعل الأشياء أكثر سوءًا. إنّ الالتباس الذي كنّا نعيش فيه هو في جزء منه من صنع أيدينا.

يوماً ما، سوف يريد أحدُهم كتابة القصّة الحقيقية للهجرة اليهودية من ألمانيا؛ وسوف يكون عليه أن يبدأها بوصف معيّن للسيّد كوهن من برلين، الذي كان دائما 150 بالمائة ألمانيّا، ألمانيّا تحدوه نزعة وطنية فائقة. وفي سنة 1933، وجد السيّد كوهن ملجأ له في براغ وبسرعة شديدة أصبح على قناعة تامّة بأنّه وطنيّ تشيكيّ - أنّه وطنيّ تشيكيّ حقيقي ومخلص تماما، مثلما كان ألمانيّا حقيقيّا ومخلصا. مرّ الوقت وحوالي سنة 1937 بدأت الحكومة التشيكيّة، في ذلك الحين تحت ضغط ما من النازيين، في طرد لاجئيها اليهود، في تجاهل تام لواقعة كونهم كانوا يشعرون بأنّهم مواطنون تشيكيون مستقبليون. عندئذ ذهب صديقنا كوهن إلى فيينا؛ وحتى يكيّف نفسه مع الوضع هناك، كان الأمر يتطلّب نزعة وطنيّة نمساويّة معيّنة. لكنّ الاجتياح الألماني فرض على السيّد كوهن مغادرة البلاد. ووصل إلى باريس في وقت عصيب، ولم يحصل أبدا على ترخيص إقامة قانوني.ولكونه قد اكتسب عندئذ مهارة كبيرة في التفكير الحالم[22]، فقد رفض أن يأخذ الإجراءات الإدارية المجردة مأخذ الجدّ، مقتنعاً بأنّه سوف يقضّي مستقبل حياته في فرنسا. ولأجل ذلك هو قد أعدّ تكيّفه مع الأمّة الفرنسية بناءً على تماهيه هو نفسه مع سلف"نا" فرسنجيتوريكس[23]. أعتقد أنّه لا يحسن بي أن أسهب في سرد المزيد من مغامرات السيد كوهن. وطالما أنّ السيد كوهن لا يستطيع أن يستجمع عقله من أجل أن يكون ما هو الآن فعلاً، أي يهوديّاً، فلا أحد يمكنه أن يتنبّأ بالتغيّرات المجنونة التي لا تزال في جعبته من أجل المضيّ قدماً.

يمكن أن يوجد إنسانٌ يريد أن يخسر اكتشافاته لنفسه، وفي الواقع، إمكانيات الوجود الإنساني، التي هي غير متناهية، غير متناهية بقدر ما أنّ الخلق غير متناه. لكنّ كسب شخصيّة جديدة هي عملية خلق تشبه في صعوبتها - وانعدام الأمل فيها - عمليّة خلق جديد للعالم. مهما كان ما نفعله، مهما كان ما ندّعي أنّنا نكونه، نحن لا نكشف عن أيّ شيء آخر سوى عن رغبتنا المجنونة في أن نتغيّر، وليس في أن نكون يهودا. كلّ نشاطاتنا موجّهة نحو البلوغ إلى هذا الهدف: لا نريد أن نكون لاجئين، منذ أن صار المهاجرون الناطقون بالألمانية موسومين بأنّهم يهود؛ لا نسمّي أنفسنا "بلا جنسيّة"[24] منذ أن باتت أغلبيّة

---

[22]- wishful thinking

[23]- Vercingetorix. قائد من شعب الغال، عاش في القرن الأوّل قبل الميلاد، استطاع توحيد قبائلها وخوض حروب مشهورة ضدّ يوليوس قيصر.

[24]- stateless. "بلا دولة".

الناس في العالم الذين لا جنسيّة لهم يهوداً؛ نحن على استعداد لكي نكون "هوتنتوت"[25]، فقط كي نخفي واقع كوننا يهوداً. لم ننجح ولم نستطع أن ننجح؛ وتحت غطاء "نزعتنا التفاؤلية" يمكنك بكلّ يسر أن تستشعر الحزن اليائس لدعاة الاندماج.

إنّ لفظة "اندماج"[26]، إنّما أخذت عندنا نحن الآتين من ألمانيا معنى فلسفيّا "عميقا". من الصعب عليك أن تتخيّل إلى أيّ حدّ نحن جادّون في هذا الأمر. لم يكن الاندماج يعني التكيّف الضروري مع البلد الذي حدث لنا أن وُلدنا فيه ومع الشعب الذي حدث لنا أن تكلّمنا لغته. نحن نتكيّف من حيث المبدأ مع أيّ شيء وأيّ شخص. هذا الموقف أصبح واضحا جدّا بالنسبة إليّ ذات مرة من خلال كلمات واحد من مواطنيّ، والذي عرف، على ما يبدو، كيف يعبّر عن مشاعره. فحين وصلنا للتوّ إلى فرنسا، هو قد وجد واحدة من جمعيات التكيّف تلك، حيث يؤكّد اليهود الألمان لبعضهم البعض بأنّهم كانوا بالفعل فرنسيين. قال في خطابه الأوّل: "لقد كنّا ألماناً جيّدين في ألمانيا وبناءً عليه نحن سوف نكون فرنسيين جيّدين في فرنسا." صفّق الجمهور بحماسة ولا أحد ضحك من الأمر؛ كنّا سعداء بكوننا تعلّمنا كيف نثبت أنّنا مخلصون.

إذا كانت الوطنيّة سلوكاً روتينيّا أو ممارسة، فنحن سوف نكون الشعب الأكثر وطنيّة في العالم. لنعد إلى صديقنا السيّد كوهن؛ هو بلا ريب قد حطّم كلّ الأرقام القياسية. إنّه ذلك المهاجر المثالي الذي هو على الدوام، وفي كلّ بلد كان قدرٌ رهيبٌ قد قاده إليه، يلقي ببصره على الفور إلى جبال الوطن[27] ويحبّها. ولكن لأنّ الوطنيّة لم يؤمَن بها بعدُ باعتبارها ممارسة، فمن الصعب أن نقنع الناس بجدّية تحوّلاتنا المتكررة. هذا الصراع جعل مجتمعنا على هذا القدر من عدم التسامح؛ نحن نطالب بإقرار[28] كامل من دون مجموعتنا الخاصة بسبب أنّنا لسنا في موقف يسمح لنا بالحصول على ذلك من أبناء البلد. أمام هذا النوع من الكائنات الغريبة مثلنا، صار أبناء البلد مرتابين؛ ومن وجهة نظرهم، القاعدة هي أنّه وحده الإخلاص تجاه بلداننا القديمة هو أمر يمكن فهمه. ذلك ما جعل حياتنا أكثر مرارة بالنسبة إلينا. كان بمقدورنا أن نتخطّى هذه الريبة إذا كان لنا أن نفسّر ذلك بأنّه لكوننا يهوداً، فإنّ وطنيّتنا في بلداننا الأصلية، إنّما كان لها على الأرجح جانب خاص وغريب. وعلى الرغم من ذلك هي كانت بالفعل نزيهة ومتجذّرة.

[25]- Hottentots. شعب من إفريقيا الوسطى. أمّا أصل التسمية فربّما تعود إلى لفظ هولندي له معنى "اللكنة" مثل "التأتأة" و"الفأفأة"....

[26]- assimilation

[27]- native

[28]- affirmation .في معنى "الاعتراف".

لقد كتبنا مجلّدات ضخمة لإثبات ذلك؛ ودفعنا أجر بيروقراطية كاملة من أجل استكشاف قدامة[29] ذلك وتفسيره بشكل إحصائي. كان لدينا دارسون يكتبون مقالات فلسفية عن التناغم المحتوم بين اليهود والفرنسيين، بين اليهود والألمان، بين اليهود و...إنّ إخلاصنا اليوم، المشكوك فيه بهذه الوتيرة المتكررة، إنّما له تاريخ طويل. إنّها مائة وخمسين عاما من تاريخ الطائفة اليهودية المندمجة التي أنجزت عملا غير مسبوق: على الرغم من أنّها ما تنفكّ تثبت كلّ الوقت عدم-يهوديّتها[30]، فإنّها قد نجحت في البقاء يهوديّة على الرغم من كلّ ذلك.

إنّ الارتباك اليائس لهؤلاء التائهين تيه أوليس[31]، الذين، على عكس الصورة النمطية عنهم، لا يعرفون من هم فعلا، إنّما من السهل تفسيره من خلال هوسهم الكامل برفض الاحتفاظ بهويتهم. وهذا الهوس هو أقدم عهدا من العشر سنوات الأخيرة التي كشفت عن العبثيّة العميقة لوجودنا. نحن مثل أناس لهم فكرة ثابتة، لا يستطيعون دوماً أن يتمالكوا أنفسهم عن محاولة إخفاء وصمة عار خيالية. وهكذا نحن مغرمون على نحو متحمّس بكلّ إمكانية جديدة تبدو، لكونها جديدة، قادرة على فعل المعجزات. نحن مفتونون بأيّة جنسيّة جديدة تماما، مثلما تكون امرأة من الحجم الكبير سعيدة بأيّ فستان جديد يعدُها بأن يمنحها خطّ الخصر المرغوب فيه. لكنّها لا تحبّ الفستان الجديد إلاّ طالما هي تعتقد في صفاته الإعجازية، وهي سوف ترمي به بعيدا بمجرّد أن تكتشف أنّه لا يغيّر من قامتها[32] - أو، في هذه الحالة، من وضعها[33].

قد يمكن للمرء أن يتفاجأ من أنّ عدم الجدوى الظاهرية لتمويهنا الغريب لم يزل غير قادر على تثبيط عزائمنا. وإذا كان صحيحا أنّ بني البشر نادرًا ما يتعلمّون من التاريخ، فإنّه من الصحيح أيضا أنّهم يمكن أن يتعلّموا من التجارب الشخصية التي هي، كما هو الأمر في حالتنا، مكرّرة مرّةً إثر أخرى. ولكن قبل أن تلقي بالحجر الأوّل علينا، تذكّر أنّ كون المرء يهوديّا هو أمرٌ لا يمنح أيّ وضع قانوني في هذا العالم. وإذا كان يجب علينا أن نبدأ في قول حقيقة كوننا لسنا شيئا آخر سوى أنّنا يهود، فذلك سوف يعني أنّنا نعرّض أنفسنا إلى قدر الكائنات البشرية التي، من حيث إنّها غير محميّة بأيّ قانون خاص أو اتفاقية سياسية، هي ليست شيئا آخر سوى كونها كائنات بشرية. من الصعب عليّ أن أتخيّل موقفاً أكثر خطرا، لأنّنا نعيش حاليّاً في عالم حيث توقّفت الكائنات البشرية بما هي كذلك عن الوجود لبعض الوقت؛ ولأنّ

[29]- antiquity

[30]- non-Jewishness

[31]- these Ulysses-wanderers

[32]- stature

[33]- status

المجتمع قد اكتشف الميز العنصري[34] بوصفه السلاح الاجتماعي الأكبر الذي بواسطته يستطيع أحدهم أن يقتل الناس من دون سفك الدماء؛ ولأنّ جوازات السفر أو شهادات الميلاد، وفي بعض الأحيان حتى إيصالات ضريبة الدخل، هي لم تعد أوراقا شكليّة بل مادّة للتمييز الاجتماعي. صحيح أنّ أغلبنا يعتمد اعتمادا كاملا على المناويل الاجتماعية؛ نحن نفقد ثقتنا في أنفسنا إذا ما كان المجتمع لا يقبل بنا؛ نحن مستعدّون - وكنّا دوماً مستعدّين - لدفع أيّ ثمن من أجل أن يتمّ قبولنا في المجتمع. إلاّ أنّه من الصحيح أيضا أنّ القلائل جدّا من بيننا الذين كانوا حاولوا التخلّي عن كلّ حيل وألاعيب التكيّف والاندماج تلك، هم قد دفعوا ثمنا أكبر ممّا كان يمكنهم تحمّله: لقد جازفوا بالحظوظ القليلة التي تُمنح حتى إلى المحرومين-من-حماية-القانون[35] في هذا العالم المقلوب رأسا على عقب.

إنّ موقف هذه القلّة التي يمكن للمرء، حسب برنارد لازار، أن يسمّيها "المنبوذون عن وعي"، لا يمكن تفسيره بواسطة الأحداث الراهنة وحدها تماما كما لا يمكن تفسير موقف السيد كوهن الذي حاول بكل الوسائل أن يصبح وصولياً[36]. كلاهما من أبناء القرن التاسع عشر، الذي لم يكن يعرف أناسا محرومين-من-حماية-القانون بشكل شرعي أو سياسي، بل كان يعرف فقط وبشكل جيّد منبوذين اجتماعيين وما يقابلهم، الوصوليين الاجتماعيين[37]. إنّ التاريخ الحديث لليهود، والذي بدأ مع يهود البلاط وتواصل مع الموليونيرين والمحسنين اليهوديين، هو قادر على نسيان أمر هذا الاتجاه الآخر للتراث اليهودي- تراث هاين وراحيل فارنهاغن وشولوم أليشام وتراث برنارد لازار وفرانس كافكا أو حتى شارلي شابلن. إنّه تراث أقلّية من اليهود الذين لم يرغبوا في أن يكونوا وصوليين، والذين فضّلوا منزلة "المنبوذ عن وعي". كلٌّ يتفاخر بأنّ الصفات اليهودية - "القلب اليهودي"، الإنسانية، الدعابة، الذكاء النزيه- هي صفات المنبوذين. وكلّ النقائص اليهودية - فقدان اللباقة، الغباء السياسي، مركّبات الدونيّة وحبّ المال- هي نقائص مميّزة للوصوليين. لقد كان هناك دوماً يهود لم يعتقدوا أنّه من المجدي تغيير موقفهم الإنساني ونظرتهم الطبيعية الثاقبة إلى الواقع لصالح ضيق الأفق الذي يطبع روح الطائفة أو لصالح اللاواقعية الجوهرية للتبادلات المالية.

---

[34]- discrimination

[35]- outlaws

[36]- upstart

[37]- social parvenus

لقد فرض التاريخ وضع الخارجين عن القانون[38] على حدّ سواء، على المنبوذين والوصوليين على حدّ سواء. فأمّا الوصوليون فهم لم يقبلوا بعد بالحكمة العظيمة لكلمة بالزاك **"لا يصل المرء مرّتين"**؛ وهكذا هم لم يفهموا الأحلام المتوحّشة للمنبوذين، وهم يشعرون بالإهانة عند مشاركة هذا المصير. وأمّا أولئك اللاجئون القلائل الذين أصرّوا على قول الحقيقة، حتى إلى حدّ البذاءة، فهم حصلوا كمقابل على عدم شعبيّتهم على أفضليّة لا تقدّر بثمن: إنّ التاريخ لم يعد كتابا مغلقا أمامهم والسياسة لم تعد امتياز الوثنيين[39]. هم يعرفون أنّ حرمان الشعب اليهودي في أوروبا من حماية القانون[40] قد كان متبوعا مباشرة بحرمان أغلب الأمم الأوروبية الأخرى من حماية القانون. إنّ اللاجئين، وهم مطرودون من بلد إلى آخر، إنّما يمثّلون طليعة شعوبهم - إذا ما احتفظوا بهويّتهم. وإنّ تاريخ اليهود هو للمرة الأولى ليس مفصولا، بل مربوطا بتاريخ كلّ الأمم الأخرى. إنّ عصبة الشعوب الأوروبية قد انكسرت شظايا عندما، وبسبب أنّها، سمحت بأن يتمّ إقصاء العضو الأضعف فيها وبأن يتمّ اضطهاده.

انتهى

[38]-outlaws

[39]-Gentiles

[40]-the outlawing